

هجرات بني حنيفة
إلى خارج اليمامة في القرن الثالث الهجري(*)

أ.د. عبدالله بن محمد السيف
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

في القرن الثالث الهجري هاجرت بطون من بني حنيفة إلى مصر والشام والعراق وغيرها من الأقاليم الأخرى، وقد حمَّلت الدراساتُ الحديثة الإمارةَ الأخيضرية مسؤولية هذه الهجرات؛ بسبب سياسة الجور والظلم التي سار عليها الأخيضريون، فهل هذه المقولة دقيقة؟. البحث ينطلق من فرضية فحواها أن سياسة الإمارة الأخيضرية لم تكن السبب في هذه الهجرات؛ ويناقش الروايات التي تناولت هذه الهجرات، واعتمدت عليها الدراسات الحديثة، كما يبين الأسباب التي أدت إلى ذلك، مثل الاعتداءات القبلية على المناطق الحضرية المستقرة، وضعف الأمن، والجفاف، وإهمال الدولة العباسية لهذا الإقليم خاصة بعد نهاية العصر العباسي الأول؛ لانشغالها بمشكلاتها السياسية سواء ما كان في مركز الخلافة أو ما يتعلق بثورات الأرياف كثورة الزنج. ويتناول



(*) أتقدم بالشكر الجزيل للزملاء الأفاضل الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن صالح الهلابي والدكتور عبدالله بن علي الزيدان والدكتور عبداللطيف بن ناصر الحميدان على تفضلهم بقراءة مسودة البحث، وإفادتي ببعض الملحوظات القيمة.

البحث النتائج العامة التي ترتبت على هذه الهجرات وأثرها على اليمامة، أو على المناطق التي استقر فيها بنو حنيفة خارج اليمامة.

مواطن بني حنيفة في اليمامة:

تعد قبيلة بني حنيفة إحدى قبائل بكر بن وائل من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، عاشت في اليمامة وسط الجزيرة العربية، إذ تمتد منازلها شمالاً من وادي قُرَّان (وادي الشعيب حاليًا) وما حوله حتى جو الخضارم وما حولها جنوبًا (الخرج حاليًا)، ومن أطراف الدهناء شرقًا حتى نفود الوَرِكَة (قنيفذة) غربًا[١]. وقد شاركت القبيلة في هذه المواطن بعضُ بطون القبائل المختلفة مثل بني تميم وبني نمير وغيرهم[٢]. ومساكن معظم بطون هذه القبيلة في المناطق التي يمر بها وادي العِرْض (وادي حنيفة) الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب بمسافة يقدر طولها بأكثر من (١٥٠) كيلاً. يقول أبو عبيد السكوني[٣]: "عرض اليمامة، وادي اليمامة، ينصب من مهب الشمال ويفرغ في مهب الجنوب مما يلي القبلة. وما حوله من القرى تسمى السفوح، والعرض كله لبني حنيفة إلا

(١) عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، الرياض، مطبعة الفرزدق، ١٣٩٨هـ، ج١، ص٣٤٨.

(٢) شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٦، ج٤، ص١٠٤.

(٣) أبو عبيد السكوني هو أحمد بن الحسن بن إسماعيل السكوني، كان مختصًا بالخليفة العباسي المكتفي ثم الخليفة المقتدر، وقد ألف كتابًا في أسماء مياه العرب، انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مطبعة دار المأمون، القاهرة، ١٣٥٧هـ، ج٣، ص ص٨-٩.

شيء منه لبني الأعرج من بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم"(٤). وقد عدد الهمداني القرى والمواطن التي سكنها بنو حنيفة على ضفاف وادي العرض وسمّى من كان ينزلها من بطون بني حنيفة(٥).

وينتسب بنو حنيفة بن بكر بن وائل إلى لجيم بن صعب، وقد أنجب حنيفةُ الدُّولَ، وعَدِيًا، وعامرًا. ويذكر ابن حزم أن الثروة والعدد في بني حنيفة؛ الدُّول وأولاده: مرة، وعبدالله، وذهل، وثعلبة(٦). فاستوطن بنو سحيم بن مرة بن الدُّول المُريِّرة، ومَوْشُوم، ومَلْهم، وثرمداء(٧) وقران وريمان، والخَضَارم التي كانت ديار هوذة بن علي السحيمي(٨).

(٤) ياقوت، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٥) الحسن بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد الأكوع، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ، ص ص٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٠٧.

(٦) علي بن أحمد سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢م، ص ص٣٠٩-٣١٠.

(٧) ياقوت، المصدر السابق، ج٢، ص٧٦، ج٤، ص ص٣١٩، ٣٣٦، ج٥، ص ص١١٧، ٢٢٣؛ وانظر: عمر رضا كحالة، معجم القبائل العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٨٨هـ، ج٢، ص٥٠٥.

(٨) الحسن بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ، ص ص٢٨٢، ٢٨٥. وقران تعرف الآن باسم القرينة، تتوسط الوادي أسفل من حريملاء وأعلى من ملهم. انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، الرياض، مطبعة الفرزدق، ١٣٩٨هـ، ج٢ ص٢٦٨. أما الخضارم فتقع في الخرج في الموضع الذي تقوم فيه بلدة اليمامة الآن أو قريبًا منه، انظر: المرجع نفسه، ج١، ص٣٨٨.



أما بنو عبدالله بن الدُّول فسكنوا مَلْحُوبًا، ومُليحبًا[٩]، ومُهَشَّمة والعمارية[١٠]، في حين استوطن بنو ذهل بن الدُّوَل بن حنيفة الهَدَّارَ، إذ يذكر الحفصي أن الهدّار لبني ذهل بن الدُّوَل، وكذلك العقير[١١].

ومن المناطق التي استوطنها بنو عبيد بن ثعلبة بن الدّول مدينة حَجر التي اختطها عبيد بن ثعلبة، وهي أكبر مدينة في اليمامة، وكانت كالكوفة والبصرة لكل قوم فيها خطة، إلا أن الأكثرية كانوا من بني حنيفة[١٢]. ومن البلدان التي سكنها بنو

(٩) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٩١. (رواية الحفصي)، والحفصي هو محمد بن إدريس بن أبي حفصة اليمامي، عاش في القرن الثالث الهجري، وهو أول من ألف كتابًا عن اليمامة، وكان هذا الكتاب من مصادر ياقوت، وقد أكثر عنه النقل، لكن كتابه لم يصل إلينا. انظر: حمد الجاسر، محمد بن إدريس بن أبي حفصة، مجلة العرب، السنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج٣، ص٦٦٠.

(١٠) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٠٧؛ ويذكر الحفصي أن مهشمة قرية ونخل ومحارث لبني عبدالله بن الدول، ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥.

(١١) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٣٨، ج٥، ص٣٩٤. والهدّار يسمى الآن الهديدير - بالتصغير - غير مسكون؛ انظر: ابن خميس، معجم اليمامة، ج٢، ص٤٥٧. أما العقير، فهي التي اتخذها إبراهيم بن عربي الكناني مقرًا له عندما كان واليًا لليمامة في العصر الأموي، ويقع في متسع من وادي العرض. أسفل بلدة العينية؛ حمد الجاسر، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ، ص٦١.

(١٢) إبراهيم بن إسحاق الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٩هـ، ص ص٦١٦- ٦١٧؛ لغدة الأصفهاني، الحسن بن عبدالله، بلاد العرب، تحقيق: حمد الجاسر صالح العلي، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ، ٣٥٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٢٢١؛ ياقوت الحموي، المشترك =

عبيد بن ثعلبة الوتر ووادي لبن، والوَالجة[١٣] وغَبْراء[١٤]. وسكن بنو يربوع بن ثعلبة بن حنيفة في المَحَرقة[١٥].

أما بنو عدي بن حنيفة فاستوطنوا الكِرْس[١٦]، والعَوْقَة والنَقْب[١٧]، وغَرْقَة وجرنَّة[١٨] وتمرًا وتميرًا[١٩] والخضارم وأباضًا والجعاد وعقرباء[٢٠]، في حين استوطن بنو عامر بن

= وضعًا، باعتناء وستنفلد، جوتنكين، ١٨٤٥م، ص١٢٢. وقد قامت مدينة الرياض على أنقاض مدينة حجر؛ انظر: الجاسر، مدينة الرياض، ص٩.

(١٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ص١٢، ٣٥٥، ٣٦٠.

(١٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٠٧، وغبراء لم يبق منها إلا اسم واديها غبيراء، وتقع بقرب مدينة الدرعية. ويرى الأصفهاني أن بلدة (وبرة) سكنها بنو عبيد بن ثعلبة، بلاد العرب، ص٦١.

(١٥) الهمداني، المصدر السابق، ص٢٨٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٦١.

(١٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٥١.

(١٧) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٠٧، ص٢٨٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٦٩، ج٥، ص٢٩٨ وعوقه تعرف الآن باسم عرقه، تقع في منتصف وادي حنيفة بين الرياض شمالاً والدرعية جنوبًا؛ انظر: ابن خميس، معجم اليمامة، ج٢، ص١٩١. ويذكر الأصفهاني أن بني عدي سكنوا في قرقرى، بلاد العرب، ص٣٦٢. وقرقرى تشمل الآن ضرماء والمزاحمية والبرة.

(١٨) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٢٤٥، ج٤، ص١٩٥.

(١٩) الأصفهاني، بلاد العرب، ص٣٢٩. وبلدة تمير لا تزال معروفة في سدير في نجد، أما تمر فهي بلدة تسمى الآن تمرة بالقرب من تمير؛ انظر: الأصفهاني، بلاد العرب، ص٢٥٨، هامش (٧)، ص٢٥٩، هامش (١).

(٢٠) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ص٢٨٤- ٢٨٥. وتقع عقرباء على ضفة وادي حنيفة، وقد درست عقرباء وقامت بجوارها بلدة الجبيلة.



حنيفة فيشان والمنصف والعُيين[٢١] والعقير والظرفاء[٢٢]، ويذكر الهمداني أن بني عامر سكنوا الخضارم مع بني عدي وبني سحيم[٢٣].

وجاورت بعض البطون من قبيلة بكر بن وائل بني حنيفة في مواطنها، حيث سكن بنو قيس بن ثعلبة بن عكابة الخرج[٢٤]، ونميلة[٢٥]، والهزيمة[٢٦]، والمصانع[٢٧]، وقفًا[٢٨]، ومنفوحة[٢٩]. واستوطن بنو سدوس[٣٠] بن ذهل بن شيبان من ثعلبة بن عكابة

(٢١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ص٢٨٢، ٢٨٥، ٣٠٧، والعيين الآن تعرف بالعينية، محمد الفهد العيسي، وادي العرض (عرض بني حنيفة) مجلة العرب، السنة الأولي، العدد الثاني، ١٣٨٦هـ، ص١٣٦؛ وانظر: حمد الدخيل، يحيي بن طالب الحنفي، الرياض، ١٤٢١هـ، ص٢٢.

(٢٢) عمر رضا كحالة، معجم القبائل العربية، ج٢، ص٧٠٧. ويروي الحفصي أن العقير باليمامة نخل لبني ذهل بن الدول بن حنيفة، وبه قبر إبراهيم بن عربي والي اليمامة في العصر الأموي، والعقير أيضًا نخل لبني عامر بن حنيفة في اليمامة؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٣٨.

(٢٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٢٨٢.

(٢٤) الحربي، المناسك، ص٦١٧.

(٢٥) الأصفهاني، بلاد العرب، ص٣٦٠؛ ياقوت، المشترك وضعًا، ص٤٢٢. وتعرف نميلة الآن باسم النميليات، العيسى، المرجع السابق، ص١٣٧.

(٢٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٦.

(٢٧) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٣٦.

(٢٨) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٢٨٣.

(٢٩) الأصفهاني، بلاد العرب، ص٣٦٠؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٠٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ص٢١٤-٢١٥.

(٣٠) الحربي، المناسك، ٦١٨؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٠٨، وسدوس لا تزال قرية عامرة، ذات مزارع ونخيل. وقد ذكر من أصحاب رسول الله ﷺ عبدالله بن أسود بن شهاب بن الحارس بن =

قرية سدوس. أما بنو غبر من يشكر بن بكر بن وائل فكان من ديارهم قرية حائط بني غبر[٣١]، وملهم[٣٢]، والبالدية[٣٣].

امتازت مواطن بني حنيفة بخصوبة التربة، واشتهرت بزراعة الحبوب والتمور حيث كانت تصدر هذه المنتوجات إلى الحجاز، وبعد إسلام ثمامة بن أثال الحنفي، أحد سادات اليمامة المشهورين، قطع التموين الغذائي عن الوثنيين في مكة، فلم يدع حبة تأتيهم من اليمامة[٣٤]، إضافة إلى أن مواطن بني حنيفة تقع على الطرق التي تمر عبر إقليم اليمامة إلى الأقاليم الأخرى مثل البحرين والعراق والحجاز[٣٥]، مما

= سدوس، حيث هاجر من اليمامة وباع كل ما يملك بها، ثم قدم على الرسول ﷺ، وأهداه جرابًا من تمر، فدعا له الرسول ﷺ بالبركة. انظر: محمد بن منيع بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د. ت، ج١، ص٣١٥.

(٣١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٢٨٥.

(٣٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص٣٠٨؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥م، ج٤، ص١٢٥٢.

(٣٣) الأصفهاني، بلاد العرب، ص٣٢٨، ويقول عبدالله بن خميس بأن البالدية هي ما يعرف الآن بالفاقعة بالقرب من صلبوخ. معجم اليمامة، ج١، ص١٣٣.

(٣٤) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، القاهرة، ١٣٥٦هـ، ج٤، ص ص٣١٦-٣١٧؛ ابن سعد، الطبقات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ، ج٥، ص٥٥٠. وانظر بحثنا: ثمامة بن أثال الحنفي، مجلة جامعة الإمام، عدد ١٦، الرياض، ١٤١٧هـ، ص ص٣٥٦-٣٥٧.

(٣٥) الهمداني، المصدر السابق، ص ص٢٨١- ٢٨٢؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م، ص١٤٧؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص٣٠، وعن الطرق البرية التي كانت تربط =



جعلها أحيانًا تتحكم في هذه المناطق وتستفيد منها في إقامة المحطات التجارية وتسويق الإنتاج الزراعي. ولا شك في أن قوة بني حنيفة الاقتصادية والبشرية أعطتها نفوذاً بين القبائل الأخرى قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فموقف معظم قبيلة بني حنيفة - بقيادة مسيلمة الحنفي الذي ادعى النبوة - هو رفض الإسلام وعدم الإذعان للخلافة الإسلامية الجديدة بقيادة الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بيد أن هزيمة مسيلمة والمرتدين من بني حنيفة على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه في معركة عقرباء(٣٦) أدى إلى ضعف نفوذهم. أما البطون التي

= اليمامة بالأقاليم الأخرى؛ انظر كتابنا، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ص١١٠-١١٧.

(٣٦) هناك اختلاف في المصادر حول تاريخ هذه المعركة فبينما يروي الطبري في تاريخ الرسل، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢م، ج٣، ص ص٣١٣-٣١٤؛ وأبو معشر في ابن الجوزي، المنتظم، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ، ج٣، ص٨٣؛ وابن خياط في تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم العمري، النجف، ١٣٨٦هـ، ص١٠٧، أنها وقعت في سنة ١١هـ. نجد اليعقوبي؛ تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار بيروت، ١٩٧٠م، ج٢، ص١٣١؛ والبلاذري في فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ، ص١٠٠؛ وابن إسحاق في الطبري، تاريخ الرسل، ج٣، ص٣١٣، يذكرون أنها وقعت سنة ١٢هـ. ويقول ابن كثير "قال خليفة بن خياط ومحمد بن جرير، وخلق من السلف: كانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال ابن قانع في آخرها، وقال الواقدي وآخرون: كانت في سنة ثنتي عشرة، والجمع بينهما أن ابتداءها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة ثنتي عشرة " انظر: البداية والنهاية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ، ج٥، ص٣٣٠. لقد أجمعت المصادر على شدة مقاومة بني حنيفة للمسلمين، ووصفتهم بعض المصادر الإسلامية من كتب التفسير وغيرها بأنهم أصحاب البأس =

ثبتت على الإسلام من بني حنيفة مثل بني سحيم بن مرة بن الدّول بن حنيفة(٣٧)، وبني عبيد بن ثعلبة رهط ثمامة بن أثال الحنفي الذين ساندوا القوات الإسلامية بقيادة خالد بن الوليد وانضموا إلى الجيش الإسلامي قبل معركة عقرباء في ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة ثمامة بن أثال الحنفي(٣٨)، فهؤلاء استفادت الدولة الإسلامية في المدينة من خدماتهم، واستعانت بهم في المراكز القيادية، إذ عين الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه مطرف بن النعمان بن سلمة الحنفي واليًا على اليمامة(٣٩).

لقد أدت هزيمة المرتدين في اليمامة إلى تغيير في البنية السكانية في مواطن بني حنيفة وجيرانهم في اليمامة، مثل

= الشديد الذين أشارت إليهم الآية الكريمة: "قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون"، سورة الفتح، آية١٦. انظر: النيسابوري، تفسير غرائب القرآن، طبع بهامش تفسير الطبري، جامع البيان، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ج٢٦، ص٥٨، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الرياض، ١٤٣٠هـ، المجلد الثاني، ص١٧٣٠، وانظر من كتب التاريخ: ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، الهند، ١٣٨٨هـ، ط١، ص٣٥، الكلاعي، تاريخ الردة، تهذيب أحمد خورشيد، القاهرة، ١٩٦١م، ص٨٤.

(٣٧) الطبري، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٩٢.

(٣٨) عبدالرحمن السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، القاهرة، ١٩٧١م، ج٣، ص٢٥٣، وعن الثابتين على الإسلام من بني حنيفة انظر بحثنا: الثابتون على الإسلام في مواطن بني حنيفة أثناء ردة مسيلمة، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب (١)، المجلد العاشر، الرياض، ١٤١٨هـ.

(٣٩) الكلاعي، تاريخ الردة، تهذيب خورشيد أحمد فاروق، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ١٩٦١م، ص١١٩.

الفقي التي سكنها بنو العنبر من تميم "بعد قتل مسيلمة؛ لأنها خلت من أهلها وكانوا قُتلوا مع مسيلمة"(٤٠)، أو المجازة التي سكنها "أخلاط من الناس من موالي قريش؛ لأنها لم تدخل في صلح خالد بن الوليد لمّا صالح أهل اليمامة"(٤١)، وعندما تمت هزيمة مسيلمة الكذاب أسكن خالد بن الوليد بني الأعرج – وهم بنو الحارث بن كعب بن سعد بن تميم – الهدّار(٤٢). وكان أحد بنود معاهدة الصلح حصول المسلمين على مزرعة من كل قرية من قرى بني حنيفة في اليمامة(٤٣).

ومع أن الإسلام انتشر بين عشائر بني حنيفة في اليمامة، وأحدث تغييرًا بين أفراد هذه القبيلة حتى وصل بعضهم إلى منصب القضاء – مثل أبي مريم إياس بن صبيح الحنفي الذي تولى القضاء في البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٤٤) – إلا أن مكانة هذه القبيلة ظلت تقابل

(٤٠) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٢٦٩؛ والفقى يعرف الآن بسدير، فوادي الفقي هو وادي سدير، انظر: ابن خميس، معجم اليمامة، ج٢، ص٢٥٦. وعن التدابير الإدارية التي اتخذتها الدولة الإسلامية لتوطين القبائل في اليمامة انظر: صالح الوشمي، ولاية اليمامة، الرياض، ١٤١٢هـ، ص٨٨.

(٤١) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٥٦.

(٤٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٩٤.

(٤٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٩٨، وانظر مناقشة الدكتور إحسان صدقي العمد للصلح بين المسلمين وبني حنيفة في بحثه "حركة مسيلمة الحنفي" حوليات كلية الآداب، الحوليه العاشرة، جامعة الكويت، ١٤٠٩هـ، ص ص٦٩-٧٢.

(٤٤) ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص٣١١.

بشيء من الازدراء من بعض الشعراء في القرنين الأول والثاني للهجرة[٤٥]. ومع أوائل القرن الثالث الهجري تختفي أخبار سكان اليمامة من المصادر حتى سنة ٢٣٢هـ، وتعود للظهور مع قيام بعض بطون القبائل العربية من الأعراب في اليمامة - مثل بني نمير بن عامر بن صعصعة - بمهاجمة الطرق والمناطق الحضرية التي كانت قائمة[٤٦]، فأضر ذلك بالنشاط الاقتصادي مثل الزراعة والتجارة. ويرى بعض الباحثين[٤٧] بأن قرار الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) بإسقاط العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء والاعتماد على الجند الأتراك؛ أسهم في عودة بعض عشائر القبائل إلى الجزيرة العربية، وقطع الطريق والثورة ضد الخلافة العباسية. وعلى الرغم من أن هذا القرار كان له أثر واضح على العرب في الأمصار الإسلامية مثل مصر[٤٨]، إلا

(٤٥) للاطلاع على نماذج من شعرهم راجع: المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، د. ت، ج٣، ص٢٥؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج٥، ص٢٨٦؛ البلاذري، انساب الإشراف، بيروت، ١٤٠٠هـ، القسم الرابع، ج١، ص٢٢٢؛ وانظر: عبدالله العسكر، هجرة بني حنيفة إلى الأمصار الإسلامية في العصر الأموي، دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثالث، السنة الثامنة عشرة، الرياض، ١٤١٣هـ، ص٢٧.

(٤٦) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص١٤٦.

(٤٧) عبدالله الشبل، الدولة الأخيضرية، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام، العدد السادس، ١٣٩٦هـ، ص٤٦٠؛ فهد الدامغ، الدولة الأخيضرية في اليمامة، مجلة التاريخ العربي، العدد الثلاثون، ١٤٢٥هـ، ص٢٠٢.

(٤٨) محمد بن يوسف الكندي، ولاة مصر، تحقيق: حسين نصار، دار صادر، بيروت، د. ت، ص ص٢١٧ -٢١٨.



أن المصادر لا تسعفنا بمعلومات واضحة عن تأثير ذلك على قبائل وسط الجزيرة العربية مثل بني حنيفة وبني تميم وبني نمير وغيرهم، ولم تدعم الأدلة التاريخية عودة بعض أبناء القبائل من الأمصار بعد إسقاطهم من الديوان؛ لأن من أسقط هم أحفاد لأبناء القبائل التي تحضرت واستوطنت في الأمصار الإسلامية في أثناء الفتوحات. لذلك نعتقد أن ثورة الأعراب ومهاجمة الطرق والقرى والمناطق الحضرية عائد إلى إهمال الدولة العباسية لإقليم اليمامة؛ بسبب انشغالها بالمشكلات السياسية لديها، إضافة إلى الجدب والقحط الذي أسهم في سوء أحوال الأعراب الاقتصادية كما سنبين فيما بعد.

لقد شكى الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفى إلى الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) ما تعانيه المناطق الحضرية المستقرة من الاعتداءات المتكررة من الأعراب، بعد أن أنشده قصيدة مدحه فيها ثم بين له بعد ذلك عبث بني نمير واعتداءاتهم و"إغاراتهم على الناس وعلى اليمامة وما قرب منها"(٤٩)، ويذكر الأصفهاني أن عمارة بن عقيل كان له ضيعة باليمامة(٥٠)، ومن الراجح أنها كانت في بلدة أثيفية في إقليم الوشم من أرض اليمامة، حيث يروي ياقوت أن أكثرها لولد جرير ابن الخطفى، وبها كان منزل عمارة(٥١)، وهو الذي يقول:

(٤٩) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص١٤٦.
(٥٠) الأصفهاني، الأغاني، القاهرة، ١٣٨٩هـ، ج٢٤، ص١٤٢.
(٥١) ياقوت، المصدر السابق، ج١، ص٩٣.

عجبت لتغريسي نوى التمر بعدما
طلعت من السبعين أو كدت أفعل[٥٢]

فأرسل الخليفة الواثق قائده التركي بغا سنة ٢٣٢هـ لتأديب بني نمير، فحاربه الأعراب من قبيلة بني نمير[٥٣]. أما أهل القرى والمزارع فلم يكونوا ضمن من حاربهم، حيث كانوا على استعداد للتعاون مع جيش الخلافة العباسية، يروي الطبري: "وإنما قاتل بغا من بني نمير: بنو عبدالله بن نمير... ولم يكن في القتال من بني عامر بن نمير إلا القليل، وبنو عامر بن نمير أصحاب نخل وشاء وليسوا أصحاب خيل، وعبدالله بن نمير هي التي تحارب العرب"[٥٤].

ولا ريب في أن شكوى عمارة بن عقيل إلى الخليفة الواثق من اعتداءات الأعراب على المناطق الحضرية لبني تميم، تشمل أيضًا الاعتداءات على عشائر بني حنيفة الذين سكنوا بالقرب من مواطن بني تميم، وأحيانًا شاركوهم السكن[٥٥]، كما هو الحال في بلدة ثرمداء في الوشم التي سكنتها بطون من بني حنيفة، وكذلك الهدّار الذي سكنه بنو الأعرج من تميم - كما أسلفنا.

(٥٢) الهجري، التعليقات والنوادر، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ج٢، ص١٥٩؛ حمد الجاسر، التعليقات والنوادر، دراسة ومختارات، الرياض، ١٤١٣هـ، ص٧٥٥.

(٥٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص ص١٤٧-١٤٨.

(٥٤) المصدر نفسه، ص١٤٨.

(٥٥) عبدالله الزيدان، حملة بغا التركي، اللقاء العلمي لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون، ١٤٢١هـ، ج١، ص١٠٢.



هجرات بني حنيفة من اليمامة:

كانت قبيلة بني حنيفة مستقرة في مواطنها في العصر العباسي الأول حيث ازدهرت الزراعة والتجارة، يقول ابن الفقيه: "وأما حنطتهم فتسمى بيضاء اليمامة وهي عذي لا سقي، يحمل منه إلى الخلفاء، وأما تمره فلو لم يعرف فضله إلا أن التمر ينادى عليه بين المسجدين: يمامي اليمامة يمامي اليمامة، فيباع كل تمر ليس من جنسه بسعر اليمامي"(٥٦). كما ازدهرت التجارة في مواطن بني حنيفة واستفادت من التجارة التي ازدهرت في الخليج العربي، وبرزت حجر التي تتوسط وادي العرض بازدهار التجارة فيها نتيجة لنشاط الطريق التجاري البري المار بها والذي يربط البحرين بالحجاز عن طريق اليمامة، يقول ابن رستة: "وبلاد اليمامة شرقها متصلة بحدود البحرين... وغربها يفضي إلى مكة... ومصر اليمامة (حجر) بها منزل السلطان وإليها تجلب الأشياء"(٥٧). ويدلنا على ازدهار التجارة في اليمامة ومقر ولاتها حجر: ضَرّب الدراهم العباسية فيها بين سنتي ١٥٨ و١٧٠هـ، وذِكر كلمة (حجر) على النقود الفضية المضروبة في اليمامة في السنوات ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧هـ(٥٨). كما ازدهرت المحطات التجارية

(٥٦) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٢٩. والعذي هو الذي يسقى من ماء الأمطار.

(٥٧) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩٢م، ص١٨٢.

(٥٨) محمد العش، النقود العربية المحفوظة في متحف قطر الوطني، الدوحة، ١٤٠٤هـ، ص ص٣٥٥-٣٥٧. لقد تم اكتشاف فلس نحاسي عباسي في بلدة بنبان شمال الرياض، ضرب مدينة حجر سنة ١٥٧هـ في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨)، انظر: نايف الشرعان، فلس عباسي نادر، مجلة عالم المخطوطات والنوادر، المجلد الأول، العدد الثاني، الرياض، ١٤١٧هـ، ص٤٨١-٤٨٢.

على الطريق البري، حيث تم اكتشاف سوق تجاري في قرقرى (سوق ضرماء) يعود تاريخه إلى العصر العباسي(٥٩).

وعلى الرغم من هذا الازدهار الزراعي والتجاري إلا أن المصادر بدأت تتحدث عن هجرات كبيرة إلى خارج اليمامة في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع، فيروي اليعقوبي أن أكثر من في العلاقي في مصر "قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية"(٦٠). ويذكر ابن حوقل أنه في عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) دخل محمد بن يوسف الحسني اليمامة فانقشع "أهلها من جوره إلى أرض مصر والمعدن، في آلاف كثيرة فغلبوا على من كان بها من أهل الحجاز ... وتكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومضر وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين في عهد المتوكل"(٦١). ويقول أيضًا: وكانت اليمامة "قرارًا لربيعة ومضر، فلما نزل عليها بنو الأخيضر جلت العرب منها إلى جزيرة مصر فسكنوا بين النيل وبحر القلزم وصارت لهم ولتميم كالدار التي لم يزالوا بها، وابتنوا بها غير منبر: كالمحدثة التي بظاهر أسوان،

(٥٩) يوريس زار ينس وآخرون، التقرير المبدئي عن مسح المنطقتين الوسطى والجنوبية والغربية، مجلة أطلال، العدد الرابع، الرياض، ١٤٠٠هـ، ص٣٠.

(٦٠) اليعقوبي، البلدان، ليدن ،١٨٩٢م، ص٣٣٤. ويرى المقريزي أنهم قدموا من اليمامة، ونزلوا "أرض مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين في عدد كثير وانتشروا في النواحي...". البيان والإعراب، مطبعة المعارف، مصر، ١٣٣٤هـ، ص٤٨.

(٦١) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص٥٨.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

وكالعلاقي، وهو المنهل الذي يجتاز به الحجيج إلى عيذاب وهم أهل معدن الذهب، وإقامتهم عليه"(٦٢). ويذكر اليعقوبي أيضًا أن بني حنيفة استوطنوا الشام في جند دمشق في كورة عرقة وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة(٦٣). أما ابن سيرين في تاريخه فيقول: و"في سنة ٣١٠هـ انتقل أهل قرّان من اليمامة إلى البصرة لحيف لحقهم من ابن الأخيضر في مقاسماتهم وجدب أرضهم"(٦٤).

لقد حملت بعض الدراسات الحديثة(٦٥) التي تناولت الإمارة الأخيضرية مسؤولية هجرة أهل اليمامة وخاصةً بني حنيفة إلى خارجها؛ بسبب سياسة الجور والظلم التي سار

(٦٢) المصدر نفسه، ص٦٠.

(٦٣) اليعقوبي، البلدان، ص٣٣٧.

(٦٤) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣١٩.

(٦٥) تكاد تجمع الدراسات الحديثة التي تناولت الإمارة الأخيضرية على أن سياسة الجور والظلم الواقعة على أهل اليمامة هي سبب الهجرة، انظر مثلاً: نزار عبداللطيف الحديثي، إمارة بني الأخيضر في اليمامة، مجلة كلية الآداب -جامعة بغداد، العدد ٢١، ١٩٧٧م، ص ص١٣١-١٣٢؛ فهد الدامغ، المرجع السابق، ص٣٧؛ ابن خميس، معجم اليمامة، ج١، ص٤١؛ عبدالله الراشد، الاستيطان في وادي حنيفة، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٢٠هـ، ص٣٧. ويذكر عبدالله العسكر أن الإمارة الأخيضرية لم تنفق على التعليم الديني، وبناء المساجد للعبادة والتعليم، إضافة إلى ذلك فقد فرضت ضرائب عالية على التجارة والزراعة، مما جعل السكان يغادرون اليمامة، لصعوبة الحياة فيها. وقد رجعت إلى كتاب ابن حوقل، المصدر الذي اعتمد عليه الباحث، ولم أعثر على هذه المعلومات. انظر:

Abdullah AL-askar, History af the Banu AL-okhaydhir Dynasty in Al-yamama, Dirasat, vol .23 No 2, Amman 1417, p.365.

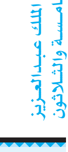
عليها الأخيضريون، وذلك اعتمادًا على ما رواه ابن حوقل في كتابه صورة الأرض، وياقوت في معجم البلدان نقلاً عن ابن سيرين في تاريخه. فهل هذه المقولة دقيقة أم أن هناك أسبابًا أخرى لهذه الهجرات؟.

الواضح أن رواية ابن حوقل فيها تعميم، وذلك عندما ذكر أن أهل اليمامة جلوا عنها إلى مصر بسبب سياسة الظلم والجور التي تبناها محمد بن يوسف الأخيضر عندما دخل اليمامة. كما أن فيها عدم دقة، فالمعروف أن الأخيضريين بقيادة إسماعيل بن يوسف (الأخيضر)[٦٦] كانوا يقودون ثورة ضد الدولة العباسية في الحجاز، حيث انتصر إسماعيل وجيشه على الجيش الذي أرسلته الدولة العباسية بقيادة محمد بن أحمد بن عيسى المنصور سنة ٢٥١هـ في مكة[٦٧]، وفي سنة ٢٥٢هـ توفي إسماعيل بن يوسف بمرض الجدري، فتولى أخوه محمد قيادة الثورة، إلا أن الخليفة المعتز بن المتوكل (٢٥٢-٢٥٥هـ) أرسل جيشًا بقيادة أبي الساج الأشروسني التركي استطاع إلحاق الهزيمة بجيش محمد الأخيضر سنة ٢٥٢هـ، فانسحب من الحجاز، وتوجه إلى اليمامة[٦٨] للاستيلاء عليها، ولعله استعان ببعض القبائل

(٦٦) أطلق لقب الأخيضر على يوسف بن إبراهيم بن موسى من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب، ثم أطلق فيما بعد على ابنه محمد. ابن عنبة، أحمد بن علي الحسني، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية، القاهرة، ١٤٠٠هـ، ص٢١٣.

(٦٧) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص ص٣٤٦- ٣٤٧.

(٦٨) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ، ج٤، ص ص٢٠١- ٢٠٥.



البدوية المعارضة للدولة العباسية مثل بني كلاب وبني نمير، ولا سيما أن بني جعفر بن كلاب أخوال أبيه[٦٩]، فدخل اليمامة وغلب عليها[٧٠] واستولى على الخضرمة إحدى قواعد بني حنيفة وجعلها قاعدة للأخيضريين، مستفيداً من اضطراب أحوال الدولة العباسية وبُعد اليمامة عن مركز الخلافة[٧١]. كما أن الأخيضريين لم يجدوا معارضة من بني حنيفة الذين كانوا يقيمون في الخضرمة، مثل بني سحيم بن مرة، وبني عدي، وبني عامر بن حنيفة، مما يؤيد هجرة معظمهم منها قبل قدوم الأخيضريين، كما أن عدم معارضة بني حنيفة للأخيضريين يدل على أن نفوذهم بدأ يتضاءل في اليمامة. يقول الهمداني: "وقد ملك الخضرمة بعد بني عبيد من حنيفة آل أبي حفصة ثم غلب عليها الأخيضر بن يوسف العلوي فسكنها"[٧٢]. والحقيقة أن رواية الهمداني غير دقيقة، فالمعروف أن الخلفاء الراشدين والأمويين (عدا فترة نجدة بن عامر الحنفي) والعباسيين في معظم عصرهم الأول بسطوا حكمهم على اليمامة، أما آل أبي حفصة فهم من الموالي، وكانت علاقتهم بالخلفاء العباسيين جيدة، حيث ولَّى الخليفة العباسيُّ الواثقُ إسحاقَ بنَ إبراهيم بن أبي حفصة على

(٦٩) ابن عنبة، أحمد بن علي الحسني، عمدة الطالب في أنساب آل طالب، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية، ص٢١٣؛ وانظر أيضاً رأى فهد الدامغ في استعانة الأخيضر بالقبائل الأخرى، الدولة الأخيضرية، ص٢١٢.

(٧٠) المسعودي، المصدر السابق، ص٢٠٥؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص٤٦؛ ابن عنبة، عمدة الطالب، ص٢١٤.

(٧١) الحديثي، المرجع السابق، ص١٣٠.

(٧٢) الهمداني، المصدر السابق، ص٣٠٩.

اليمامة والبحرين سنة ٢٣١هـ[٧٣]، وكان من سياسة الدولتين الأموية والعباسية ألا تولي على اليمامة واليًا من بني حنيفة أو بني تميم، بيد أن رواية الهمداني تدل على أن قبيلة بني حنيفة كانت تعاني ضعفًا. والراجح أن هناك سلسلة من الهجرات تمت من مواطن بني حنيفة في اليمامة قبل قدوم الأخيضريين إليها، لكن الرواة بدؤوا يدونون هذه الهجرات بعد أن لفتت أنظارهم في سنة ٢٣٨هـ، وقد استمرت هذه الهجرات نتيجة للعلاقات التي كانت مستمرة بين المهاجرين وبني عمومتهم المستقرين في مناطق بني حنيفة في اليمامة.

إذن فالهجرات التي ذكرها ابن حوقل سنة ٢٣٨هـ لا علاقة لها بما ينسب إلى الأخيضريين من الجور وسوء السيرة؛ لأن الأخيضريين - كما أسلفنا - لم يستولوا على اليمامة إلا بعد سنة ٢٥٢هـ كما أجمعت على ذلك المصادر[٧٤]. ولا بد أن هناك أسبابًا أخرى لهذه الهجرات.

(٧٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبعة دار الكتب، القاهرة، ج٢، ص٢٥٩؛ وأسرة آل أبي حفصة تنسب إلى يزيد الذي كان يكنى أبا حفصة من موالى عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحين ولي مروان بن الحكم المدينة لمعاوية بن أبي سفيان جعله على خراج اليمامة، وتزوج في اليمامة وأقام بها هو وأبناؤه، وكانت صلتهم بالخلفاء الأمويين جيدة. وعندما قامت الدولة العباسية، استطاع آل أبي حفصة أن يجعلوا علاقتهم بالخلفاء جيدة كذلك، حيث وفد شعراؤهم على الخلفاء العباسيين ومدحوهم مثل مروان بن أبي حفصة، فأعطوهم الأموال والإقطاعات في اليمامة، ويمكن اعتبار آل أبي حفصة تابعين للعباسيين. عن هذه الأسرة انظر: حسين عطوان، شعر مروان بن أبي حفصة، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ص٧-٩؛ فهد الدامغ، المرجع السابق، ص٢١٤، هامش٤٥.

(٧٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٢٠١؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص٤٦؛ ابن عنبه، المصدر السابق، ص٢١٤.

أما ما رواه ياقوت عن هجرة أهل قرّان إلى البصرة في العراق في أوائل القرن الرابع الهجري بسبب الجفاف وفرض بعض الضرائب الزراعية على أراضيهم، فالمعروف أن هذه البلدة كان يسكنها بنو سحيم بن مرة بن الدّول بن حنيفة، وكانوا من الثابتين على الإسلام، وبقوا في مناطقهم ولم تمس أملاكهم الزراعية[٧٥]، وبلدة قرّان تقع في شمال وادي العرض بعيدًا عن نفوذ بني الأخيضر الذي تركز في منطقة الخرج وما حولها، فهل وصل نفوذ بني الأخيضر إلى هذه البلدة؟. المقدسي يذكر حجرًا - وهي في وسط وادي العرض في القرن الرابع الهجري - بأنها "بلد كبير، جيد التمور"[٧٦] ولم يذكر أي تأثير لظلم الأخيضريين لأهل حجر أو فرض ضرائب زراعية عليها.

إذن ما الأسباب التي دفعت بعض بطون بني حنيفة إلى الهجرة من مواطنهم في اليمامة؟.

لو نظرنا إلى الأسباب بشكل شمولي لوجدنا أن أهمها الاعتداءات القبلية على الطرق التجارية والمناطق الزراعية الحضرية من قبل بني نمير وغيرهم من الأعراب، وقد أدَّتْ هذه الاعتداءات إلى تدهور الزراعة والمحطات التجارية في بعض مناطق بني حنيفة، وعندما جاء القائد العباسي بغا في عهد الخليفة العباسي الواثق لتأديب الأعراب لم ينجح في وضع حد لعبثهم في اليمامة، ولم تنجح الدولة العباسية في

(٧٥) الطبري، تاريخ الرسل، ج٣، ص٢٩٢؛ البكري، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٦٤م، ج٣، ص١٠٦٣.

(٧٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ليدن، ١٩٠٦م، ص٩٤.

بسط سلطانها على اليمامة وحفظ الأمن(٧٧)، وخاصة أن مركز الدولة عانى اضطرابات سياسية، مثل الصراع بين الخليفة المتوكل والجند الأتراك، وقيام بعض الثورات ضد الدولة العباسية، كثورة الزنج التي حدثت سنة ٢٥٥هـ(٧٨) واستمرت حتى سنة ٢٧٠هـ، وشغلت الدولة العباسية عن التفكير في اليمامة ومشكلاتها الداخلية. إضافة إلى أن سيطرة القرامطة على هجر في أواخر القرن الثالث الهجري وتجنيدهم لبعض الأعراب(٧٩) لمهاجمة المناطق الحضرية المستقرة، وكان لذلك دور في تدهور المناطق الزراعية. ولدينا مثال على تدمير القرامطة للمناطق الحضرية المستقرة، وهو وإن لم يكن من مناطق بني حنيفة إلا أنه نموذج لما كان يفعله القرامطة وأعوانهم من الأعراب بالمناطق الحضرية المستقرة، يروي المسعودي أن أبا سعيد الجنابي القرمطي خرب في سنة ٢٨٧هـ قرية يبرين التي كانت كثيرة النخل والعيون، يقول: "فأباد أهلها وكانت من أطيب بلاد الله وأكثرها أهلاً وعمائر ونخلاً وشجرًا، فلا أنيس بها إلى هذا الوقت"(٨٠).

(٧٧) عبدالله الزيدان، المرجع السابق، ص١٠٤.

(٧٨) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص٤٣١ وما بعدها.

(٧٩) البكري، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبدالله يوسف الغنيم، ذات السلاسل، الكويت، ١٣٩٧هـ، ص ص٤٥، ٤٦؛ وانظر: الطبري، تاريخ الرسل، ج١٠، ص٧١.

(٨٠) المسعودي، التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ، ص ص٣٤٠-٣٤١. ويروي الهمداني أن يبرين سكنتها بطون العرب "ثم استخرجتها من أيديهم قشير ثم أخرجت القرامطة بني قشير عنها"، ص٣١١.



لقد أدت الاعتداءات القبلية على المواطن الحضرية إلى تدهور الزراعة والتجارة، كما أسهم هجوم القرامطة على مدن شرق الجزيرة العربية مثل صحار وهجر والقطيف وبيرين[٨١] إلى تدهور الطريق التجاري البري الذي كان يمر بوادي العرض (وادي حنيفة) ويربط البحرين بالحجاز عن طريق اليمامة[٨٢]، فبدأ يتحول النشاط التجاري عن الطرق الداخلية لليمامة إلى الطرق الساحلية والبحرية، وهذا ما ضاعف من سوء الأحوال الاقتصادية للسكان. وعندما بدأت سبل العيش تضيق في مواطن بني حنيفة فكر بعض سكانها في الهجرة إلى خارج اليمامة، ولا سيما أن مناطق الهجرة تتمتع بأوضاع اقتصادية جيدة.

ولا شك في أن الجفاف وقلة الأمطار تؤثر في تناقص مياه الآبار، مما يؤثر في أحوال السكان من حاضرة وبادية ويدفعهم إلى الهجرة، فإذا قلت الأمطار أصاب الناس القحط

(٨١) المسعودي، المصدر السابق، ص ص٣٤٠- ٣٤١؛ البكري، جزيرة العرب، ص ص٣٩، ٤٦؛ شيخ الربوة، كتاب نخبة الدهر، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٨٧.

(٨٢) الهمداني، المصدر السابق، ص ص٢٨١- ٢٨٢؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٤٧، ويرى ويليام فيسي أن معظم تجارة الخليج الهائلة خلال آخر القرنين الثالث والرابع للهجرة، انتزعها طريق البحر الأحمر بعد قيام الدولة الفاطمية في مصر، مما سبب انهيارًا للطرق التجارية البرية في اليمامة والتي كانت تمر بوادي العرض. انظر: الرياض، المدينة القديمة، ترجمة: عبدالعزيز الهلابي، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٩٩. ويذكر برنارد لويس أن الفاطميين عملوا على إحكام سيطرتهم على الطرق التي كانت تصل إلى الدولة العباسية، وقد ساعدهم على ذلك قيام حركة القرامطة التي أوقعت تجارة العباسيين في خطر خاصة في نقاط تحركها على طول الخليج. انظر:
Lewis, Bernard, Fatimiler ve Hindistan yolu, I.U. Iktisat Fcultesi Mecmuasi, Istanbul, 1949-1950, C. II. S., 358-360.

والمجاعات وهلكت المواشي، وقد مرت اليمامة بهذا القحط في العصر العباسي الأول، إذ استقر أهل البادية في القرى والمناطق الزراعية[٨٣]. والملاحظ أن هناك دورات مناخية تمر بها الجزيرة العربية، حيث عم الجفاف في الجزيرة العربية في عام الرمادة سنة ١٨هـ[٨٤]، وكذلك في القرن الثاني الهجري من سنة ١١٤-١١٨هـ حتى هاجرت البادية إلى الشام[٨٥]، وكذلك في القرن الثالث الهجري حيث ذكر القحط في عدة سنوات[٨٦]، ومثل ذلك في القرن الرابع الهجري، ومن ضمن هذا القحط والجدب ما اقتبسناه سابقًا من رواية ابن سيرين عن هجرة أهل قرّان إلى البصرة في العراق[٨٧].

(٨٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٦.

(٨٤) انظر بحثنا: عام الرمادة، مجلة العصور، المجلد الخامس، الجزء الأول، لندن، ١٤١٠هـ.

(٨٥) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة، ١٣٨١هـ، ج١، ص ص٢٦٥-٢٦٦.

(٨٦) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص ص١٢٤، ١٥٠، ٥٠١، ٥٩٩؛ الهمداني، الإكليل، بيروت، ١٣٨٦هـ، ج٢، ص١٥٧، ج١٠، ص ص١٦٨-١٦٩؛ النويري، نهاية الأرب، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ج٢٢، ص٢٦٣.

(٨٧) ياقوت، المصدر السابق، ج٤، ص٣١٩. ويذكر خسرو الذي زار مكة سنة ٤٤٢هـ أن ذلك العام اشتد فيه القحط حتى بيعت عشرون وزنة من القمح بدينار ذهبي مغربي، كما غادر البلاد كثير من أهلها بسبب الجوع والجدب؛ جزيرة العرب كما رآها الرحالة ناصر خسرو، ترجمة: أحمد خالد البدلي، مجلة الآداب - جامعة الملك سعود، المجلد ٦، الرياض، ١٩٧٩م، ص٢٣. وحاول عزة النص - رحمه الله - أن يدرس دورات المطر والقحط في نجد، وتوصل تقريبًا إلى أن "مدة التعاقب المتكررة أكثر من غيرها بين نهاية قحط ومبدأ قحط آخر... كانت ١٨سنة. أما مدة استمرار القحط فكانت على الغالب من ثلاث إلى أربع سنوات". المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الآداب، العدد الأول، جامعة الرياض،١٣٩٠هـ، ص١٤.



نتائج الهجرات:

ترتب على هجرات بني حنيفة إلى خارج الجزيرة العربية استقرارهم في المناطق التي هاجروا إليها سواء كانت مصر في وادي العلاقي شرق أسوان أو بلاد البجة جنوب أسوان، أو الشام أو العراق أو غيرها من الأقاليم الأخرى، وليس لدينا معلومات سوى عن هجرتهم إلى مصر وبلاد البجة واستيطانهم في منطقة وادي العلاقي التي امتازت بخصوبة التربة، ووجود المعادن الثمينة، حيث شاركوا في استخراج الذهب مستخدمين عبيدًا من السودان لحفر المناجم وتصنيع المعادن. يقول اليعقوبي: "وأكثر من بالعلاقي اليوم قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمامة... ووادي العلاقي وما حوله معادن للتبر، وكل ما قرب يعتمل فيه الناس. لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر، ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ثم يسبك"[٨٨].

أما على المستوى السياسي، فقد أسهمت قوة تقدر بثلاثة آلاف ممن كانوا يعملون في وادي العلاقي في حملة محمد بن عبد الله القمي التي أرسلها الخليفة العباسي المتوكل للقضاء على ثورة البجاويين ضد العرب المسلمين المستوطنين في بلاد البجة وأرض المعدن سنة ٢٣٩هـ، وتم إخماد هذه الثورة سنة ٢٤١هـ[٨٩]. ويروي الطبري أن عدد هذا الجيش الذي قاده القمي عشرون ألف مقاتل، اشترك فيه "جميع من

(٨٨) اليعقوبي، البلدان، ص٣٣٤.

(٨٩) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص ص٢٠٣- ٢٠٦؛ وانظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، دار صادر، بيروت، د. ت، ج١، ص١٩٦.

كان يعمل في المعادن وقوم كثير من المتطوعة"[٩٠]. ومن الراجح أن انتصار محمد القمي شجع عشائر من بني حنيفة في وادي العرض باليمامة على الهجرة إلى وادي العلاقي للاستيطان بها، وخاصة أن القمي بعد انتصاره على البجاويين، وقبل عودته إلى العراق عين على العلاقي أشهب ربيعة من بني عبيد بن ثعلبة الحنفي[٩١]. وقد تمكنت بنو حنيفة وعشائر ربيعة بزعامة أميرها أشهب ربيعة من تأسيس إمارة ربيعة في وادي النيل سنة ٢٤٥هـ، يقول ابن حوقل: "وزال منذ ذلك أمر السلطان بالعلاقي وهلك المتوكل"[٩٢]. كما اتخذ بنو حنيفة من العلاقي مقرًا لإمارتهم واختطوا مدينة لهم عرفت باسم النمامس[٩٣]، أسهمت هذه الإمارة في نشر الإسلام واللغة العربية والثقافة الإسلامية في جنوب مصر وبلاد البجة ومنطقة النوبة[٩٤]. أما على المستوى الاجتماعي فقد قامت زيجات بين بني حنيفة من ربيعة وبين قبائل البجة. يقول المسعودي: "وسكن جماعة من

(٩٠) الطبري، تاريخ، ج٩، ص٢٠٥، يذكر أبن حوقل: أن محمد القمي أتى العلاقي فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل، من كل بطن ألف رجل. انظر: صورة الأرض، ص٥٩، ويذكر ابن تغري بردي أن محمد القمي "تكامل معه من العسكر سبعة آلاف مقاتل غير الأتباع"؛ النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٩٧.

(٩١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٩.

(٩٢) المصدر نفسه، ص٥٩.

(٩٣) المقريزي، البيان والإعراب، ص٤٨.

(٩٤) عن هذه الإمارة ونشأتها وتطورها ودورها في نشر الإسلام واللغة العربية. انظر: عوض محمد خلفيات، مملكة ربيعة العربية في وادي النيل، عمان، ١٩٨٣م، ص ص٦٤-٦٧.



المسلمين معادن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب. وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. فاشتدت شوكتهم وتزوجوا في البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة، وقويت ربيعة بالبجة..."[٩٥]. ولقد أدت هذه العلاقات مع البجة إلى انتشار الإسلام واللغة العربية تدريجيًا بين البجة والعبيد السودان الذين كانوا يشتغلون في مناجم الذهب[٩٦].

أما في اليمامة فأدت هجرات بني حنيفة إلى تغيرات سكانية في مواطنهم، حيث تحولت بعض بطون القبائل إلى الاستيطان في المناطق التي هاجروا منها، كما انتقلت بعض عشائر من بني حنيفة إلى الاستيطان في مناطق أخرى. فيروي الهمداني أن بني بكر من بني ظالم بن نمير استوطنوا عقرباء[٩٧]، أما وبرة فسكنتها عشائر من تميم وغيرهم[٩٨]، وتحولت بطون من بني نمير للاستيطان في ملهم وقران[٩٩]

(٩٥) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٨؛ المقريزي، المصدر السابق، ص١٩٧؛ ويذكر المسعودي: أن صاحب المعدن في سنة ٣٣٢هـ أبو مروان بشر بن مروان ابن إسحاق بن ربيعة، ج٢، ص١٩؛ المقريزي، المصدر السابق، ص١٩٧، ويقول ابن حوقل أن أشهب ربيعة الحنفي هو جد أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي يزيد بن بشر صاحب المحدثة، وهي المدينة التي لربيعة محادة لأسوان، وأبو عبدالله هذا ابن عم أبي بكر بن إسحاق بن بشر صاحب العلاقي" صورة الأرض، ص٥٩.

(٩٦) عوض خليفات، المرجع السابق، ص٦٥.

(٩٧) الهمداني، المصدر السابق، ص٣٠٨.

(٩٨) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٥٩.

(٩٩) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٩٥. (رواية السكوني).

التي كانت لبني سحيم بن مرة بن الدول بن حنيفة(١٠٠)، كما استوطن بعض بني حنيفة في قرية معدن العيصان مع بني نمير(١٠١).

أما الدولة العباسية فكانت منشغلة بالمشكلات السياسية لديها سواءٌ ما يتعلق بمركز الخلافة أو ثورات الأرياف؛ مما جعلها تتجاهل الأوضاع في اليمامة، وأصبحت مناطق الاستيطان من القرى في وادي العرض منقسمة على نفسها، حيث أصبحت تحت رحمة الأعراب، أو نفوذ الأخيضريين في الخضرمة، أو القرامطة في هجر(١٠٢).

إذن فسياسة الإمارة الأخيضرية، لم تكن السبب في هجرات بعض بطون بني حنيفة من مواطنها إلى مصر والشام والعراق وغيرها. أما الأسباب الرئيسة لهذه الهجرات فهي الاعتداءات القبلية على الطرق والمناطق الحضرية، وضعف الحالة الأمنية، وسوء الأحوال الاقتصادية للسكان،

(١٠٠) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣١٩. ويقول الهمداني: "قرّان وريمان لبني سحيم بن الدول من حنيفة"، الهمداني، المصدر السابق، ص٢٨٥. ويشير فهد الدامغ إلى تغير الخارطة البشرية للسكان في وسط اليمامة ما بين القرن الثالث والقرن السادس الهجريين، حيث تحول بنو حنيفة من أكثرية غالبة إلى أقلية. الدولة الأخيضرية في اليمامة، ص٣٧.

(١٠١) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٣؛ والعيصان يعرف الآن باسم الدوادمي، حمد الجاسر، المعادن القديمة في بلاد العرب، مجلة العرب، ج١٠، السنة الثانية، الرياض، ١٣٨٨هـ، ص٩١٥. وسكنت عشائر من تميم وثقيف وكندة في قرقري، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٦ (رواية السكوني).

(١٠٢) وليام فيسي، الرياض المدينة القديمة، ص٩٤.



والجفاف، عكس الأقاليم التي تمت الهجرات إليها والتي كانت تتمتع بوضع اقتصادي جيد. ولعل هذه الظروف هي التي دفعت بعض عشائر بني حنيفة إلى الهجرة إلى شرق الجزيرة العربية (البحرين) والاستيطان بالقرب من القطيف قبل عودتهم إلى اليمامة بدعوة من ابن عمهم ابن درع من بني حنيفة سنة ٨٥٠هـ[١٠٣]؛ لأن البحرين كانت معروفة لأهل اليمامة، وكانت الصلات التجارية بينهم قائمة، ويذكر البكري (ت ٤٨٧هـ) أن جزيرة أوال بالبحرين "أكثر أهلها يماميون من أهل اليمامة"[١٠٤]. كما أن طريق الحج من هجر إلى مكة يمر عبر وادي العرض (وادي حنيفة) الذي تقطنه قبيلة بني حنيفة[١٠٥].

(١٠٣) ابن بشر، عنوان المجد، الرياض، ١٣٩١هـ، ج٢، ص٢٩؛ الفاخري، تاريخ الفاخري، تحقيق: عبدالله الشبل، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٨١؛ ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، الرياض، ١٣٨٦هـ، ص٣٦.

(١٠٤) البكري، جزيرة العرب، ص٣٩. وبعد تدهور زراعة النخيل في اليمامة فيما بعد يذكر أبو الفدا أن أهل الأحساء والقطيف كانوا يجلبون التمر إلى وادي الخرج باليمامة ويشترون بكل راحلتين من التمر راحلة من الحنطة؛ انظر: أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠م، ص٩٩.

(١٠٥) الهمداني، المصدر السابق، ص ص٢٨١-٢٨٢؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٤٧؛ قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، منشور ضمن كتاب المالك والممالك لابن خرداذبة، لندن، ١٨٨٩م، ص١٩١.